سيميائية الفضاء في رواية «ريح الجنوب» (1)

رشيد بن مالك
أستاذ محاضر جامعة تلمسان

حققت السيميائية قفزة نوعية في دراسة الأشكال السردية بخاصة والتجليات اللسانية وغير اللسانية بعامة. فبسطت نفوذها العلمي على حقول معرفية متنوعة، وأظهرت قدرة كبيرة في معاينتها وتقصيها بإقامة نماذج تحليلية مبنية أساسا على المنظور الافتراضي الاستنباطي.

ينطلق التحليل السيميائي من فرضية مفادها أن الفضاء نظام دال يمكن أن نحلّله بإحداث التعالق بين شكلي التعبير والمضمون، وننظر إليه على أنه مركب كالكلام؛ أي ما يدل عليه (المضمون) هو من غير طبيعة ما يدل به (التعبير)(2)، ويرتهن في وجوده الدلالي إلى الفعل الممارس فيه والقيم المحققة من استعماله(3).

ستستند دراستنا إلى هذه القاعدة النظرية التي سنفحص من خلالها التحويلات الدلالية المحورية لفضاءين نفترض أنهما مركزيان في النص: القرية والمدينة.

تبدأ رواية ريح الجنوب بوضع مضطرب ناجم أصلا عن عدم مقدرة نفيسة على الانسجام مع ما يفرزه ظاهر القرية، دالها من خلوة وصمت وحزن:

«القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشد خرابا من هذه القرية» (ص 8).

تبدو نفيسة في هذا المقطع السردي في حالة ضياع كلي يتجلّى عبر مسار صوري تجسده مجموعة من الصور المتجانسة تحيل على الواقع المأساوي للقرية: /الغربة/، /الصمت/، /الخراب/، /الصحراء/، (ص.8) المنفى، /القبور/ (ص. 26). إن فضاء /القرية/، في سكونيته وثباته وافتقاده إلى عناصر الحياة، يتحرك بوصفه فاعلا مضادا لرغبة نفيسة في الاستراحة. فتتحول القرية من فضاء العطلة / الحياة/ إلى فضاء /الموت/ تحولا يرد مسألة تحقيق برنامجها السردي الخاص بقضاء عطلتها الصيفية أمرا مستحيلا.

ويزداد الضغط حدّة بضيق فضائها العائلي (الغرفة):

«جدران أربعة وسقف من خشب وصمت» (ص. 8)

«الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك، بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان» (ص. 8).

ليست الغرفة مجرد شكل هندسي وإنما هي عنصر فاعل يدخل في علاقة تضاد مع رغبة نفيسة في الاستراحة من تعب الدراسة.

ومن هنا تتخذ الغرفة مدلولها المتسم بالقبح والباعث على الانقباض ليتعالق ضديا مع المنظر الخلفي الجميل الباعث على الانشراح والذي تفضي إليه كوة الحجرة المفتوحة بشكل يتوافق مع ما يريد أن يراه مخططها. وبالتالي فإن نفيسة المعطلة حركيا لا تملك الاختيار في توجيه رؤية يبقى مجالها محدودا وفي اتجاه واحد.

هكذا نلاحظ أن الحجرة مسخرة للكلام على شيء آخر غير الفضاء يتمثل في عزل الفتاة عن العالم الخارجي واستلاب حريتها. هذا السلوك الممارس على نفسية يفقدها جانبا هاما من انسانيتها ويؤدي إلى الاختناق والتفجر:

«أكاد أختنق ... » (ص. 8)

«أكاد أتفجر! أكاد أتفجّر...» (ص. 10)

وإذا تمعنا في الوضع الذي آلت إليه نفيسة، فإننا نجده جاء نتيجة لعدم مقدرتها، في هذه اللحظة من السرد، على تجاوز المعيق الفضائي المشحن بقيمة / المنع/:

«إن أمي تمنعني من الخروج هنا ... في هذه القرية الخالية! بينما في الجزائر حيث في كل خطوة رجل أخرج دون أن ينكر علي أحد ذلك. فلماذا الخروج هنا عيب وهناك لا؟» (ص. 38).

ينتج التمييز القائم بين الرجل والمرأة، بين /الأنوثة/ و/الذكورة/ توزيعا فضائيا خاضعا لنظام القيم الذي يحكم علاقات الفاعلين في المجتمع. وكل تغيير في الفضاء يرافقه تغيير في القيم. وينبغي أن نفهم انتقال نفيسة من المدينة (الجزائر) إلى القرية على أنه انتقال من نظام إلى نظام مغاير. ويكون الفاعل المتنقل أمام

أمرين: إما أن يلغي ذاته ويتبنى في فعله قيما لا يعرف نفسه فيها فينسجم مكرها ويدخل في تواصل مع الآخر على حساب قناعاته، وإما أن يصمد ويدخل في مواجهة مع الآخر دفاعا عن قناعاته. في ضوء هذا الإشكال الخلاقي تحتل نفيسة منزلة وسطى بين الأمرين. فهي تحتج احتجاجا محمّلا برسالة رفض للوضع القائم لأنها لم تستسغ حضور فروقات جوهرية بين الرجل والمرأة في القرية وغيابها في المدينة. هنا لا تخرج وهناك تخرج. يطوّع هنا الفضاء لاحتوائها ويسخّر هناك لممارسة وجودها. هنا، يبدو عابد بن القاضي مالكا لفضاء القرية، متحكما فيه، يستهلكه بيسر، يتنقل، يجتاز الطرقات بكل سهولة، يدخل بمرونة ويخرج. وفي /الهنا/ ذاته، وبالمقابل، تجد نفيسة نفسها ملكا لفضاء يعد اختراقه ممنوعا. على أساس هذه المعطيات، تبدو الحياة في القرية مستحيلة ويبقى حنينها إلى المدينة مربوطا بجمال إطارها:

«الجزائر، الشوارع الطويلة، بالليل تبدو سماؤها صافية بنجومها المتلألئة اقتربت من الأرض ألف مرة ... عمارتها تتحدى قمم الجبال علوا، الياسمين عاطر لا تعرفه البادية ... البحر مرآة السماء ترى الشمس فيه وجهها» (ص. 216).

لم تتكلم نفيسة عن فضاء المدينة وقيمه الجمالية سوى لأنها لا تجد صعوبة في ممارسة حضورها فيه؛ ممارسة تستجيب لرغبتها في التمتع بجماله وعناصر ديكوره التي تدخل في تشكيله وتفتقد إليه البادية. يمثل فضاء المدينة حياتها وحدود عالمها.

تشتغل الرواية إذن على فضاءين مركزيين: واقع القرية المأساوي والحنين إلى المدينة، والقرية ما هي إلا فضاء مبهم تجتمع فيه كل أسباب اليأس والضياع ..

بناء على ما تقدم من ملاحظات، يمكن أن نقيد في هذا السياق مقابلة أساسية بين /القرية/ و/المدينة/ قائمة على فروقات جوهرية متجانسة، على صعيد المدلول،

مع طبيعة العلاقة الاجتماعية الموجودة بين الرجل والمرأة. ولبلورة هذه العلاقة يجدر تتبعها على مستوى آخر يجسده الفعل الذي يمارس في الفضاء(4).

يتمظهر هذا الفعل في فضاء عابد بن القاضي الذي يريد تنفيذ برنامج تزويج ابنته نفيسة من مالك. ولفهم الآلية التي تحكم هذا البرنامج وتجلياته الدلالية، سنفحص العلاقة الموجودة بين الفاعل المنفذ وفعله.

يتضح من خلال معاينتنا للنص أن هذه العلاقة تظهر بشكل بارز في الملفوظات الآتية:

1 - «أبوك يعتزم تزويجك» (ص. 87).

2 - «أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء» (ص. 90).

3 - «يجب أن تقنعيها بالحسنى. هي صغيرة لا تفرق بين ما يصلح ولا يصلح» (ص. 91).

يحتل عابد بن القاضي في الملفوظ الأول موقع فاعل منفذ يمارس فعلا خاضعا لرغبته (الإرادة الفعل) في تزويج ابنته. وتتماهى في الملفوظ الثاني هذه الرغبة الحادة في قراره النهائي الذي يقصي من اتخاذه الطرفين الحقيقيين المعنيين بمسألة الزواج. في الملفوظ الثالث، يصير الفعل الإقناعي المشحون برسالة تهديد (بالحسنى) واجبا والقبول حقيقة. وبما أن الفتاة صغيرة، فإنها لم ترق بعد إلى درجة امتلاك الفعل التأويلي المتموضع على الصعيد التداولي الذي يمكنها من تكييفه بحسب منفعتها. وبالتالي يجب أن تقبل العقد وتنقطع عن الدراسة وتستقر بالبادية («أبوك أراد ذلك لن تعودي إلى الجزائر» (ص.86)).

إذا دققنا النظر في فعل ابن القاضي، نلاحظ أنه يندرج ضمن برنامج سردي ملحق (مصاهرة شيخ البلدية) يهدف من خلاله إلى تنفيذ برنامج أساسي تكون

الغاية منه حماية أراضيه من قانون الإصلاح الزراعي الذي تعتزم السلطة السياسية تطبيقه:

«لولا ما يخشاه من ضياع أرضه لاستطاع أن يدعها تعود إلى الجزائر لمواصلة دراستها، ولأمكنه أن لا يرغمها على الزواج إذا لم تكن راضية» (ص. 91).

إزاء هذا الوضع ستبني نفيسة بشكل ارتقائي قرارها النهائي على نحو ما يظهر ذلك في الملفوظات الآتية:

«إنني مجنونة أفكر في الزواج» (ص. 9).

«قولي له لن أتزوج، ولن أنقطع عن دراستي. سأعود إلى الجزائر مهما كان الحال»(ص. 88)

«لا تريد الزواج في الوقت الراهن لا بشيخ البلدية ولا بغيره» (ص. 190-189).

«لا أرغب في الزواج» (ص. 202).

«قررت ... » (ص. 202)

«الجزائر آه! ما أمر الحياة هنا» (ص. 216).

ترتكز هذه الملفوظات على ثنائية ضدية تتمفصل إلى: /عزوبة/عكس/الزواج/ تغذي، منذ بداية القصة، الصراع بين عابد بن القاضي ونفيسة التي ترفض فكرة الزواج وتبعده من مجال تفكيرها. ويمكن أن نعتبر هذا الرفض امتدادا لتمردها على القيم المستثمرة في فضاء القرية. فهي /لا ترغب/في الزواج/و/لايجب/أن تتزوج. إن قناعتها بضرورة تقرير مصيرها بنفسها مستمدة أصلا من قدرتها على ممارسة حريتها الفردية. ننظر إلى الحرية، في هذا السياق، على أنها قيمة مفرزة من نظام المدينة الذي يأتي كبديل لنظام القيم المتجذر في فضاء القرية.

هكذا يتضح لنا أن استهلاك الفضاء مربوط بطبيعة القيم المستثمرة فيه. إن رفض نفيسة لفضاء البادية يملك مشروعيته من قناعتها بأن الحياة فيها متسمة بمرارة ناجمة أساسا عن غياب المرافق الضرورية للحياة وحضور مكثف لقيم تشيء المرأة وتفقدها جانبا هاما من إنسانيتها. وقوّى اكتشافها لهذه الحقيقة المرة حنينها إلى المدينة ورغبتها في الدخول في وصلة بها. وقد تبلور هذا الحنين في مشروع الفرار الذي تجسده الملفوظات الآتية:

«الفرار هو الحل» (ص. 218)

«الجمعة مقررة للهروب (...) تم إحكام برنامج الهروب»(ص. 237)

«يجب أن أنفذ ما قررت (...) لا لن أتراجع» (ص. 238)

«انطلقت نفيسة باتجاه المحطة» (ص. 240)

«لم تكن تفكر إلا في الوصول إلى المحطة والسفر إلى الجزائر» (ص. 241)

إن مشروع الفرار ليس في الواقع سوى برنامج ملحق يمكن نفيسة بوصفها فاعلة منفذة من تحقيق برنامج أساسي تسعى من خلاله إلى تحرير المرأة («أبحث عن تحرير المرأة ...» (ص. 217). في البادية الجزائرية التي تدهورت فيها القيم وتصدعت. من هنا ينبغي أن ننظر إلى مغامرة هروب نفيسة على أنها تشكل أزمة ثقة في القيم التي يفرزها فضاء القرية.

إن الأمل في حياة أفضل جعل نفيسة تدرك أن القيم في فضاء البادية لا تهدف إلى الإبقاء على التماسك الاجتماعي ولا تستجيب لطموحات الانسان المشروعة بل تهدف إلى تكريس التمزق الاجتماعي واستلاب حرية المرأة.

هكذا يتضح لنا أن رواية «ريح الجنوب» مبنية أساسا على فضاءين مركزيين يمرران عبر تضادهما مجموعة من القيم تعبر عن التناقضات التي أفرزها انتقال

الجزائر المستقلة من عالم التخلف إلى عالم التحضر. وقد أحدثت عملية التحري عن قيم المدينة تصدعا في البنية الاجتماعية يجد تجلياته في صراع الأجيال المجسد في المواجهة العنيفة بين عابد بن القاضي ورابح راعي الغنم التي انتهت بعودة نفيسة إلى فضائها العائلي.

الهوامش:

(1) - عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1976.

(2) - J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991, p. 30.

(3) - A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979, p. 133.

(4) - Nicole Everaert - Desmedt, Sémiotique du récit, Louvain - La Neuve, 1984, p. 202.

ثبت المصطلحات

خلاقي	Axiologique
وصلة	Conjonction
مضمون	Contenu
فضاء	Espace
تعبير	Expression
فعل تأويلي	Faire Interprétatif
فعل إقناعي	Faire Persuasif
افتراضي استنباطي	Hypothético-déductif

كلام	Langage
لساني	Linguistique
نموذج تحليلي	Modèle analytique
سردي	Narratif
مقابلة	Opposition
برنامج سردي ملحق	Programme narratif annexe
سيميائي	Sémiotique
فاعل منفذ	Sujet opérateur
قيمة	Valeur
إرادة - الفعل	Vouloir - Faire

المراجع:

1 - عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.

2 - J. Courtés, Analyse Sémiotique du discours, Hachette, Paris, 1991.

3 - A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du Langage, Hachette, Paris, 1979.

4 - A. J. Greimas, du sens //, Essais Sémiotiques, Seuil, Paris, 1983.

5 - Nicole Everaert - Desmedt, Sémiotique du récit, Louvain La Neuve, 1984.

مع زوجته